الشرق العربي واوربا

— ١ —

الى مستهل القرن التاسع

لنقولا زيادة

تمتد البلاد التي نسميها الشرق العربي من هضبة ايران شرقاً الى البحر المتوسط ووادي النيل غرباً ، ومن اسيا الصغرى وارمينيا شمالاً الى البحر العربي جنوباً ، وتشمل العراق وسوريا وفلسطين ومصر وبلاد العرب نفسها . ونظرة واحدة الى الخارطة ترينا انها تتكون من سلاسل جبال منفصلة في الشمال ، يليها الهلال الخصب الذي يحتضن بادية الشام ، وهذه في الواقع امتداد شمالي من شبه الجزيرة نفسها . ان سلاسل الجبال التي اشرنا اليها تبدأ قرب الخليج الفارسي وتتجه شمالاً في غرب باسم جبال زغروس او كردستان ، وهي الحد الطبيعي بين الامبراطورية الايرانية والعراق وتتصل هذه بجبال ارمينيا وطوروس الداخلية وطوروس الساحلية . وهذه السلاسل التي تشبه قوساً متجهة نحو الجنوب ، هي الحد الطبيعي ايضاً لانتشار الجنس العربي ولسيادة اللغة العربية ، في الشمال والشرق

الى الجنوب من هذه السلاسل يقع الهلال الخصب وهو مقعر متجه نحو الجنوب قرنه الغربي عريش مصر ، وقرنه الشرقي خليج العجم ، ومركزه الى الشمال من بلاد العرب ، فكأنه جيش مرابط متجه الى الجنوب ، ميمنته سوريا وفلسطين وميسرته خليج العجم وارض العراق ، وقلبه سفوح جبال الجزء الشمالي من العراق . وارض هذا الهلال يرويها دجلة والفرات في الشرق والامطار الغزيرة في الغرب . وكلها اراض خصبة صالحة لمختلف انواع المزروعات . اما بلاد العرب فنجد صحراوي عظيم أعلاه في الغرب ، في جبال الحجاز واليمن ثم ينحدر تدريجاً شرقاً نحو الخليج الفارسي وخليج عمان وليس في هذه البلاد انهار ، لكن فيها أودية طويلة مثل الرمة والارمك

وتفصل صحراء سيناء فلسطين بمصر كما يفصل البحر الاحمر مصر عن شبه الجزيرة العربية . ومصر ، كما قال ابو التاريخ « هبة النيل » يرويها هذا النهر المبارك بمائه ، ويحمل الى ارضها غرينه وطميه ، فتفيض على الناس بفضله خيراً وبركة . وما عدا هذا الوادي فان مصر تلال صحراوية وسهول رملية

وقد جاشت صدور ابناء وادي الرافدين ووادي النيل ، من اقدم الازمنة بالآمال فما تقاعسوا عن تحقيقها ولا وقفوا عند حد التأمل ، بل أفسحوا للفكرة مجالاً فأصبحت قوة ، وشقوا للامل طريقاً فصار عملاً ، وسلكوا في القول سبيلاً فكان فعلاً . فانشأوا ممالك قوية عدت على جاراتها فضمتها اليها ونشرت فيها اصول الحضارة . وأدى الأمر بهذين القطرين الى تصادم المصالح ، فاقتتلا حيناً ، وتصافيا حيناً آخر ، وتقاطعا آناً واتصلا آناً آخر ، وتناجزا وتبادلا الآراء والافكار ، والعقائد والعادات

وكان شمالي بلاد العرب وسوريا الطريق لجميع هذه العلاقات بينهما ، والمسرح الذي مثلت عليه ادوار التاريخ . ومن بادية نجد خرجت موجات من الساميين استوطنت العراق والشام جيلاً بعد جيل . وكانت الشام اذا ناءت بحملها ، رنت الى مصر تطلب تخفيف العبء ، وكانت مصر تتقدم الى نجدتها شأن الكريم يعين أخاه . فاشتد بذلك الاتصال بين هذه الاقطار جميعها . وكانت آخر موجة بشرية دفعتها البادية الينا موجة القرن السابع الميلادي العربية ، وهي التي اقتحمت الاقطار التي ذكرت ، في عشر سنوات فنشرت فيها لغتها ودينها

وهكذا خرجت مصر والعراق وسوريا وبلاد العرب من بوتقة التاريخ واحدة في جنسها واحدة في حضارتها ، واحدة في آدابها ، واحدة في لغتها . وكانت هذه الوحدة تقوى متى خضعت البلاد كلها لسلطان واحد ، وتضعف متى جزأتها المصالح ، وبين هذا الضعف وتلك القوة تخسر او تربح ، وتعثر او تنهض

ومما يجب ان نذكره قبل كل شيء ، ان بلاد الشرق العربي تقع بين البحر المتوسط وأواسط آسيا من جهة وبين هذا البحر نفسه والهند من جهة اخرى ، ومن هنا كانت مكانتها التاريخية . انها مركز الاتصال بين اوربا والشرق . فكلما ازدادت حاجة اوربا الى الشرق ازداد موقع الشرق العربي شأناً

وقصة هذه العلاقات بين الشرق العربي وأوربا تعود بنا الى فجر التاريخ (٣٠٠٠ — ٢٠٠٠ ق.م) ، كما دلت على ذلك أعمال الحفر الاثرية والمصادر التاريخية القديمة التي بين ايدينا . لكننا مضطرون ان نضرب صفحاً عن هذه الثروة القديمة في هذه المقالة . ويجدر بنا ان ننتقل الى اول اتصال قوي مباشر ترك في حياة الشرق الادنى أثراً كبيراً . والذي أشير اليه هنا هو فتح الاسكندر الكبير اليوناني في القرن الرابع ق . م . فقد اكتسح هذا الفاتح الكبير كل الشرق الادنى . ولما كان الاسكندر يريد توحيد سكان العالمين الهلني والشرقي من ناحية الحضارة ، أخذ على عاتقه انشاء مراكز للمدنية اليونانية لنشرها بين أهل البلاد . ومع ان أمل الاسكندر في توحيد الاجناس خاب ، فقد اصطبغ الشرق بصبغة الحضارة

الهلينية وعلومها وآدابها ، وأصبح يدور معظم هذا النشاط بالرومان

وقد بدأ تدخل الرومان في شؤون الشرق العربي في القرن الثاني قبل الميلاد ، وتم استيلاؤهم على سوريا ومصر قبيل مولد المسيح . أما العراق فلم يكن في يوم من الايام بتمامه في أيدي الرومان مدة طويلة ، كما ان محاولتهم في بلاد العرب ذهبت أدراج الرياح . لكن الجزء الذي استولى عليه الرومان من الشرق العربي مكنهم من السيطرة على الطرق البرية والبحرية العظيمة التي تصلهم بالشرق الادنى . فطريق آسيا الصغرى الى بحر قزوين ، وطريق (السرج السوري) وهو يمتد من خليج اسكندرونة الى الفرات ومن هناك الى بقية أجزاء العراق وفارس ، وطريق البتراء الى اليمن ، وطريق الاسكندرية الى القصير — جميع هذه الطرق كانت في أيديهم

ومنذ القرن الرابع بعد الميلاد أصبحت بلاد الشرق العربي جزءاً من الامبراطورية البزنطية التي كانت القسطنطينية (استانبول) عاصمتها . ومن القرن الخامس الى القرن السابع ب . م . كانت المنافسة التجارية بين فارس والبزنطيين على أشدها ، وكانت بلاد الشرق العربي مسرحاً تمثل عليه قصة هذه المنافسة الاوربية الاسيوية بكاملها . وليست حملة الاحباش على اليمن الا محاولة بزنطية للسيطرة على طريق البحر الاحمر ، كما ان غزو الفرس لليمن قبل الاسلام ، هو ظاهرة أخرى من مظاهر هذا النزاع القوي . وبقدر ما كانت تشتد حاجة أوربا التي بدأت تستيقظ شيئاً فشيئاً ، الى المتاجر الشرقية بواسطة البزنطيين ، كانت تشتد رغبة هؤلاء في السيطرة على كل طريق ان أمكن

على ان الاتصال بين أوربا والشرق العربي لم يكن تجارياً او سياسياً فحسب . بل ان كثيرين جاءوا فلسطين لاسباب دينية واضحة . وقد ترك هؤلاء الحجاج والزوار آثاراً مكتوبة لحياتهم في البلاد مثل جيروم الذي سكن بيت لحم في القرن الرابع الميلادي وحاج بوردو ، والقديسين باولا وسلفيا ، وهذه الاخيرة زارت مصر وسيناء وسوريا وآسيا الصغرى

وفي القرن السابع احتل العرب هذه البلاد ، وهي منذ ذلك الحين عربية اللغة والنزعة . وهذا الاحتلال قطع العلاقات الشرقية الاوربية حيناً ، لم يطل . إذ ان العرب لم يلبثوا ان نظموا أمورهم ودولتهم ، وسهروا على مصلحة الشعوب التي حكموها ، واستتب النظام في الشرق العربي وغيره فعاد الاتصال الى سابق عهده ، سواء أفي عالم التجارة كان ، أم في عالم الرحلة والحج . فان حجاجاً أوربيين زاروا فلسطين في العهد الاموي ولم يتركوا في كتاباتهم أثراً للتذمر او الشكوى من ولاة الأمور . بينهم زوار من الغال وانكلترا . ومن الذين جاءوا من هذه البلاد الاخيرة ويلبولد (٧٢١ — ٧٢٧) الذي مثل أمام الخليفة

يزيد الثاني (٧٢٠ — ٧٢٤) فزوّده وصحبه برسائل وأعفاهم من ضريبة الحج

وفي القرن الثامن الى القرن الحادي عشر كانت علاقة أوربا بالشرق العربي تتخذ طريقين الواحد عن طريق البزنطيين الذين أرادوا ان يحتكروا التجارة الآسيوية بأيديهم فيمرروها عن طريق آسيا الصغرى وأواسط آسيا الى الشرق ، والبلقان الى الغرب ، أما الطريق الثاني فكانت مراكزه الاسكندرية والموانىء السورية . فان المدن الايطالية مثل البندقية وبيزا وجنوة ، كان يهمها أن تحصل على متاجر الشرق بكل طريقة مستطاعة . وكان الاتجار مع الموانىء السورية يعود عليها بربح أكبر ، فاتخذت عكاء وصور وبيروت مراكز لهذه الغاية . على أننا يجب ان نذكر ان الشرق العربي تصدّعت وحدته السياسية منذ أواخر القرن العاشر لما أخذ أمراء الاطراف يستقلون ، فكان الطولونيون في مصر ، والحمدانيون في سوريا ، ثم جاء السلاجقة الذين اقتسموا السلطة والبلاد فيما بينهم ، كما استقلّ الفاطميون بمصر

على ان علاقات الشرق العربي بأوربا اتخذت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر شكلاً جديداً ، فان جماعات من مختلف الاصقاع الأوربية الغربية ، انتقلت برمتها من أوربا الى الشرق غازية فاتحة ، فكانت نتيجة ذلك الحروب الصليبية التي صدمت الشرق العربي المتصدع فتغلبت عليه ، وأنشأت فيه مملكة وامارات غريبة عنه ، انتشرت من شمال سوريا الى جنوب فلسطين . وتوالى المدد من المال والرجال قرنين فثبتوا ، فلما انقطع عنهم ضعفوا وخسروا المعركة الفاصلة . وليس من شك في ان الحروب الصليبية فيها العامل الديني حظ كبير ، لكن الواقع ان العوامل الاقتصادية والاجتماعية كان لها أثر كبير أيضاً وبمجرد التفكير في هذه العوامل وبحثها ، يرينا منزلة الشرق العربي في نظر اوربا في القرون الوسطى

ان الحروب الصليبية أثرت فيما أثرت ، في تعزيز العلاقات التجارية بين أوربا والشرق العربي . وعلى هذا فقد احتفظ البنادقة وغيرهم بالمراكز التي كانوا يتجرون بها مع الشرق في بيروت وطرابلس وعكاء . ولعلّ رحلات ماركو بولو في القرن الثالث عشر أكبر دليل على قوة الاستمرار في الاسفار والرحلات والاتجار بين أوربا والشرق . وقد ذكر السائح الفرنسي دولا بروكيه (في القرن الرابع عشر الميلادي) أنهُ صادف في بيروت ودمشق كثيراً من التجار البنادقة والفلورنسيين وغيرهم وأنهُ كان للاولين قنصل في كل من المدينتين المذكورتين

وقد كان المماليك أصحاب السلطة المطلقة في مصر وسوريا ، فوقعت في قبضة أيديهم جميع الموانىء ، وطرق القوافل التي تصل متاجر البلاد الهندية وغيرها من بلاد الشرق الأقصى بأوروبا ، فتوفر هؤلاء الضرائب التي يريدونها على كل قدر من البضاعة التي تمر من طريق البحر الاحمر الى القاهرة ثم الى الاسكندرية وكذلك من طريق الخليج الفارسي الى البصرة

ومنها الى الاسكندرونة أو طرابلس أوغيرهما ، لتنقل بعد ذلك الى البندقية . واذا تذكرنا البروة الطائلة ، التي جمعها المماليك في القرنين الرابع عشر والخامس عشر من جراء مرور البضائع في هذه الطرق ، عرفنا قيمة هذه البضائع نفسها

وفي القرن الخامس عشر أخذت دولتا اسبانيا والبرتغال تفتشان عن طريق آخر يصل أوروبا ببلاد الهند تخلصاً من ضرائب المماليك ، ومن اضطراب الأمن بسبب توسع الاتراك العثمانيين في الشرق الأدنى ، ومن سيطرة البندقية ، فكانت نتيجة هذا أن اهتدى فاسكودي غاما البرتغالي في سنة ١٤٩٨ الى اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح فتحولت التجارة عن طريق البحر المتوسط والشرق العربي ، اذ أصبحت أوروبا متمكنة من الاتصال البحري المباشر بالهند وما يليها

وأدركت جمهورية البندقية الخطر المحيق بثروتها نتيجة لهذا التحول التجاري . ففي سنة ١٥٠٤ درس مجلس الشرة فيها مشروع فتح قناة في السويس بالاشتراك مع الغوري سلطان مصر ، وذلك بقصد منافسة الطريق الجديدة بطريق أقصر وأسهل ، ولكن البندقية عادت وحاولت القضاء على الاستعمار البرتغالي في الهند دفعة واحدة ، فعرضت السلطان الغوري المصري (١٥٠١ — ١٥١٦) على ارسال حملة الى المياه الهندية ، وأرسلت له الاخشاب اللازمة لبناء السفن في البحر الاحمر ، وعمالاً مهرة من البنادقة لانشاء السفن وجنوداً اشتركوا في الحملة نفسها . وقد كان نصيب هذه الحملة الانكسار اخيراً (في ١٥٠٩) وختمت هذه المعركة ، التي تعد من المعارك الفاصلة فعلاً في تاريخ الشرق العربي التجاري

وكان الاتراك العثمانيون ، بعد احتلالهم القسطنطينية وتوغلهم في البلقان قد اتجهوا نحو سوريا ومصر فاحتلوا هذه البلاد (١٥١٧) في عهد السلطان سليم

وبضم بلاد الشرق العربي الى الدولة العثمانية انتقل مركزها السياسي الى استانبول ، لكن الموانىء والمدن السورية والمصرية بقيت لها قيمتها التجارية . فقد قال راهب اسباني زار الشرق العربي في أواسط هذا القرن (وفي طرابلس تجار بنادقة وفرنسيون لهم قناصلهم الخصوصيون كما نجد في القسطنطينية وحلب والاسكندرية والقاهرة) وقال في موضع آخر ان الغرباء لا ينقطع سيلهم عن بيروت

وفي القرن السادس عشر نلاحظ أمرين على جانب من خطر الشأن فيما يتعلق بالعلاقات بين الشرق العربي وأوروبا . أما الاول فهو هذه المغامرات البحرية التي قام بها الاسطول العثماني تحت قيادة خير الدين بربروس والتي أدت مع التقدم العثماني في جنوب شرقي اوربا ، الى التحالف بين فرنسا والدولة العثمانية . أما الامر الثاني فهو دخول انكلترا حلبة المنافسة

التجارية والبحرية في الشرق . وقد وصف هكليوت تقدم الانكليز في البحر المتوسط في القرن السادس عشر بقوله (بين السنة ١٥١١ والسنة ١٥٣٤ كانت ترى السفن ذات السواري العالية الآتية من لندن ، في مياه صقلية وكريت وقبرص حتى وطرابلس وبيروت في سوريا) وبعد ذلك بقليل أخذت انكلترا تعين قناصلها في شواطىء البحر المتوسط الشرقية ومدن سوريا الداخلية مثل حلب

ولنعد الى الامر الاول . ان التحالف بين الدولة العثمانية وفرنسا كان ربحاً للثانية . ذلك ان السلطان سليمان كان يريد ان يضعف البندقية وجنوة ، فشجع الفرنسيين على الاتجار في الشرق ، ومنحهم في السنة ١٥٣٥ امتيازات خاصة — فصار لهم حرية الملاحة في المياه التركية والاتجار الحر لقاء عوائد طفيفة ؛ وحق تعيين قناصل دائمين للنظر في شؤون الرعايا الفرنسيين القضائية والتجارية ، وحماية الاماكن المقدسة في بيت المقدس ، والكاثوليك في بلاد الدولة العثمانية وصار على كل من يود الاتجار في بلاد الدولة العثمانية ان يفعل ذلك تحت حماية (العلم الفرنسي)

وفي أواخر القرن السادس عشر أخذت الموجة التي حملت الاتراك العثمانيين الى قلب اوربا الوسطى تتراجع ، فعدوا عن التوسع البري ، وانكسروا في معركة ليانتو البحرية ، وبينما كان الفرنسيون يستغلون الامتيازات التي منحت لهم ويحاولون زيادتها ، كانت انكلترا تعزز مقامها في الهند عن طريق الشركة الهندية الشرقية التي أنشئت سنة ١٦٠٠ ، وكان فاتحة نجاحها في الشرق العربي لما استولت في السنة ١٦٢٢ على هرمز في الخليج الفارسي ومنحت حق الاحتفاظ بسفينتين حربيتين في الخليج نفسه لحماية التجارة كما أنها بدأت محاولاتها في البحر الاحمر ، والى هذا الزمن يرجع اهتمامها بتنظيم البريد البري عبر الصحراء السورية بين الخليج الفارسي وحلب بطريق بغداد او البصرة . ومن حلب الى لندن عن طريق انوانيء السورية . ويروي مؤرخو بغداد ما يدل على وجود هؤلاء حتى في المدن الشرقية الداخلية . وقد كانت حلب انى أنها مركز تجاري ، مركزاً سياسياً قوي الاثر في حياة الشرق الادنى فقد كان فيها في القرن السابع عشر جاليات بندقية ، وفرنسية ، وهولاندية ، وانكليزية وكانت التجارة الفرنسية تقدر بنحو ٤٠٠ الف جنيه في السنة . أما التجارة الانكليزية التي كانت حديثة العهد جداً فقد قدرت بنحو ١٥٠ الفاً من الجنيهات ، ولكن هذه القيمة زادت كثيراً في نهاية القرن السابع عشر ، إذ أصبحت ثلاثة أضعاف قيمة التجارة الفرنسية

وفي أواخر هذا القرن بدأت روسيا بقيادة بطرس الاكبر تعنى بشؤون الدولة العثمانية محاولة جر الغائم من التدخل في أمورها السياسية

وقد زاد اهتمام أوربا بالتجارة الهندية في القرن الثامن عشر وانتقلت العناية بها من أيدي الساسة الى أيدي التجار والجمهور ، الذي لم تنفه عنها احداث السياسة الاوربية ، وتعددت الشركات الهندية او التي تتاجر مع الهند خصوصاً في فرنسا وانكلترا ، واشتدت بينها المنافسة حتى ملكت على الناس تفكيرهم ، ولما خسرت فرنسا أملاكها في كندا ، واستقلت الولايات المتحدة عن بريطانيا ، انتقل النزاع السياسي ، والخصومة التجارية بين انكلترا وفرنسا الى الميدان الاسيوي. ومع ان فرنسا ردت على أعقابها في الهند في القرن الثامن عشر فقد أدركت ان في ميدان التجارة في الهند والشرق الاقصى متسعاً لها دون ان تكون لها أملاك في تلك الجهات . هذه المنافسة التجارية بين الدولتين هي التي حملت بريطانيا على ان تعنى بحرية البحار عناية فائقة، وبالسيطرة عليها، لتبقى طريق رأس الرجاء الصالح مفتوحة أمامها . وهذه المنافسة هي التي حملت فرنسا على محاولة شق طريق بحري بين البحر المتوسط والبحر الاحمر ، لتقضي على الطريق البحري الآخر . واتخذت هذه المنافسة ناحية الشائبة من جهة النظر الانكليزية في العراق

فقد مرَّ بنا أن انكلترا انشأت قواعد في الخليج الفارسي . والآن فطنت الى مركزين قويين أنشأت فيهما جاليتين تشرفان على معاملها ، الاولى في البصرة والثانية في بغداد . ومن المهم أن نلاحظ في هذا الصدد أن هذا النزاع التجاري القوي التفت اليه أصحاب المصالح والتجار والشركات دون الحكومتين الانكليزية والفرنسية ، بالرغم من الحاح هؤلاء على أصحاب الشأن ، كما يظهر من التقارير المودعة في دور السجلات الاوروبية . وقد كان ثمة دولة أخرى تحاول فرنسا القضاء على تجارتها الشرقية وهي هولندا ، كما توضح لنا كتابات لبنتر الى لويس الرابع عشر. وعلى كلٍّ فان فرنسا قد قرَّ رأيها منذ أيام لويس السادس عشر على أن تحتل مصر لان احتلالها مصر هي الطريقة الوحيدة لحفظ تجارتها في البحر المتوسط والسيطرة على البحر الاحمر وطريق الهند . يدلنا على ذلك إنها عينت في سنة ١٧٧٧ بعمل خارطات لشواطىء مصر وسوريا ، ودرس الاماكن الصالحة لانزال الجند ، ومسح جهات السويس . واذا ذكرنا أن روسيا تحت رعاية بطرس الاكبر قد بدأت منذ أوائل القرن الثامن عشر تهتم بشؤون الدولة العثمانية والتقرب اليها ، أدركنا معنى هذه الرسالة التي كتبها السفير الفرنسي في الآستانة في سنة ١٧٨١ الى حكومته. قال « ان روسيا قد صارت على مقربة من القسطنطينية وربما استطاعت أن تقضي على تركيا قبل أن تستطيع دولة ما مساعدتها. فعلى فرنسا أن تسرع في احتلال مصر وهو لا يكلف فرنسا صعوبة ، لان مصر خالية من أي تحصين ما ، ولانه لا يوجد فيها من الجيوش أكثر من خمسة أو ستة آلاف مملوك » . وفعلاً صممت الحكومة الفرنسية على تنفيذ هذه السياسة